[redacted]ورة المقاتل الصليبي فى المصادر العربية

دكتور قاسم عبده قاسم
كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق

لا يكاد الكثيرون من عامة مثقفى الغرب اليـــوم يعرفون شـــيئا من حوادث القرن الحادى عشر الميــلادى سوى صــورة يغلفها الخيال للحملة الصليبية الأولى • هذه الصورة تجعل من المقاتل الصليبى آنذاك مقــاتلا عملاقا ذا سترة مصفحة ، يمتطى جوادا فارها ويتبع شارة الصليب الى حيث يطارد العرب ذوى البشرة الداكنة ، وقد فروا أمامه فى جبن وتخاذل• وهــكذا ، فان مصطلح « الحملة الصليبية » نفســه يشى بصــورة فرسان بوسائل تلهبهم الحماســة الدينية الخالصــة ، فيفارقون الأهــل والوطن ليشاركوا فى الحرب المقدسة العادلة ضد أعداء الصليب (١) •

ورغم جاذبية هذه الصورة الأخاذة ، فالواقع أنه ليس هناك جانب واحد صحيح فيها ذلك أن قامة الفارس الأوربى فى أواخر القرن الحادى عشر لم تكن ــ فى الغالب لتزيد عن خمسة أقدام وثلاث بوصات ، وهو مستوى طول الرجل العادى فى مجتمع كان يعانى من انحطاط مســتوى الطب والعلاج فضلا عن النقص العام فى التغذية (٢) ، ولم يكن أبناء طبقة

---

(١) Norman F. Cantor; The medieval history, (2nd. ed).

(٢) Ibid, p. 318.

الفرسان ليشذوا عن هذه القاعدة ، صحيح أن كمية الطعام التى كان بوسعهم الحصول عليها كانت وفيرة ولكنها كانت من نفس النوعية التى يأكلها الفلاح المزارع فى ضياعهم ، ولم تكن لديهم الفرصة لتنويع هذا الطعام بالشكل الذى يكفل لهم التغذية الكاملة (١) • ومن ناحية أخرى فان فرسان الحملة الصليبية الأولى لم يستخدموا السترات المصفحة التى لم ينتشر استخدامها سوى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى بل كانوا يستخدمون قمصان الزرد (٢) • كما أن خيولهم كانت هزيلة بالقياس الى مستويات القرن الثالث عشر ، ذلك أن سلالات الخيول الأوربية لم تتحسن الا بفضل تهجينها بالسلالات العربية أثناء القرنين التاليين للحملة الأولى • واذا كان فرسان الحملة الصليبية الاولى وغيرهم قد حاربوا تحت راية الصليب ، فالحقيقة أن دوافعهم وأسبابهم لم تكن دينيـه خالصة (٣) • وأخيرا • فان المحاربين المسلمين لم يكونوا جبناء أو متخاذلين بل انهم كانوا على الأقل متساوين ، من حيث البسالة والمهـارة القتاليه مع الفرسان اللاتين ، ولم يكن نجاح الصليبيين المبدئى راجعا الى تخاذلهم أو نقص كفاءتهم القتالية ، بل الى الضعف السياسى والتمزق الداخلى والفوضى والمنازعات التى نشبت مخالبها فى الجسد الاسلامى آنذاك (٤) •

هذه الصورة التى تتمثلها أذهان عامة مثقفى الغرب ليست فى حقيقة أمرها الا تراثا تكون بفضل تلك الدعاية الدينية المحمومة التى قادتها البابوية وأثناء الحروب الصليبية • فقد خلع المؤرخون الغربيون الذين عاصروا هذه الحملة هالة من الخيال الدينى العاطفى التزق على صورة المقاتل الصليبى ، ومن خلال ضبابية الدعاية ، والخرافات والخزعبلات التى شاعت

---

(١) Sidney Painter, A hist. of the Middle Ages, Mcmillan, England 195), pp. 118-22.

(٢) عن تسليح الفارس الصليبى أنظر :

(٣) A.V.B. Norman, The Medieval Solider, (New York 1971) pp. joshua Prawer The world of the Crusaders, Ouadrange books. New York, 1972) pp. 121-32.

(٤) عن أسباب الحملة الاولى أنظر :
Edward Peters, The First Crusade, The chronicle of Charter and other source materials, (The University of Pennsylvania press 1971), pp. xi-xxii; Joshua Pawer, op. cit., pp. 14-22; Horris Bishop. The Penguin Book of the Middle Ages, (1971), pp. 103-108.
انظر أيضا سعيد عاشور ، الحركه الصليبية (مكتبة الانجلو المصرية ، ط . ثانية ١٩٧١) جـ ١ ، ص ٢٧ – ص ٤٢ • وكذلك جوزيف نسيم ، العرب والروم اللاتين فى الحرب الصليبية الاولى (دار المعارف ، ١٩٦٣) ص ١٤٦ – ص ١٥٢ •

آنذاك برزت صورة الفارس القديس لتحتل مكانة هامة في وجدان الغرب فقد كان ذلك الفارس هو أداة الرب التى يستخدمها لتنفيذ ارادته (١) ٠

وهكذا نجد أنفسنا بالضرورة في مواجهة سؤال يطرح نفسه بالحاح عن طبيعة الصورة التى رسمتها المصادر العربية للمقاتل الصليبى ٠ هذا السؤال هو محور هذه الدراسة التى تحاول أن تجد الاجابة المناسبة ٠

ولدينا وصف للصليبيين رسمته كلمات «العماد الكاتب الأصفهانى» ـ الذى كان شاهد عيان لمعظم المعارك التى خاضها صلاح الدين الايوبى وألف كتابه بمناسبة استيلائه على بيت المقدس ـ وهو وصف يكاد يكون تجسيدا لرؤية المصادر العربية عموما فى ذلك الدور المبكر من ادوار الصراع ضد الصليبيين ، فهو يقول (٢) :

«٠٠٠ والكفار قد خشنت عرائكهم ،واستعت ممالكهم ٠٠٠ وقاتلوا جندا ورعية ، واستباحوا الأنفس متورعين ، فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعية ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، وأمدهم فى طغيانهم يعمهون ، ورفعوا التكليفات ، فلا ينزع الحديد لوضوح ولا مسح ٠ شقرا كأنما لفحت النار وجوههم ، وهم فيها كالحون ، زرقا كأنما عيونهم من حديدهم ، فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون ، قد نزع الله الرقة من قلوبهم ، ونقلها الى غروبهم ، وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم ، واشتعلت نار جهنم فى فحم ذنوبهم ٠ تستعيذ المردة من مردتهم ، ويدعى بالنـــار للعون على الاطلاع على أفئدتهم ٠ فظاظ غلاظ ، جهنميون كلامهم شرر ، وأنفاسهم شواظ ٠٠٠ خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة ٠٠٠ » ٠

هذه الصورة التى ترسمها كلمات العماد الأصفهانى المنمقة وعباراته المزخرفة ، تجعل من الصليبى **عدوا كافرا** ، كما تصمه بالقسوة وجمود العاطفة الى حد الوحشية ، فقد نزع الله من قلوب المقاتلين الصليبيين الرقة، وخلق النـــاس من طين وخلقهم من حجارة ٠ كمـــا أن هذا **العدو الكافر القاسي** ، يعيش فى مستوى حضارى متواضع أيضا ٠

وبوسعنا أن نجد العذر للعماد الكاتب ، وغيره ، فى وصم الشخصية الصليبية بالوحشية والقسوة ، فعلى الرغم من أن القسوة فى معاملة العدو

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ ـ ص ٥٨ ٠

(٢) العماد الكاتب : الفتح القسى فى الفتح القدسى (تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥) ؛ ص ٥١ ٠

كانت سمة من سمات ذلك العصر ، فان ما ارتكبه الصليبيون من أهوال كان يتسم بالوحشية الشديدة والقسوة حتى بمقاييس تلك العصور : فان الفظائع التى اقترفها الصليبيون فى انطاكية سنة ٤٩٦هـ (١٠٩٨ م) ، ومعرة النعمـان والبارة فى العـام التالى (١) • ثم بعد سقوط مدينة بيت المقدس بأيديهم رغم الأمان الذى منحوه للحامية الفاطمية (٢) • أو المذبحة التى ارتكبها « ريتشارد قلب الأسد » وجنوده ضد أهالى عكا ، على الرغم من الأمان الذى بذله لهم سنة ٥٨٧ هجرية (١١٩١م) (٣) أثناء معارك الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة والتى جردها الغرب ، استجابة للبابوية، بعد سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين الأيوبى •

وهناك أمثلة كثيرة فى صفحات المصادر التاريخية العربية (٤) يمكن أن تبرر صفة القسوة والوحشية التى نعت بها العماد الكاتب المقـاتل الصليبى • ومن الطبيعى أن تجـد هـذه التصرفات الهمجية التي قام بها

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب (تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٤) جـ ٢ ، ص ١٣٢ — ص ١٣٣ • ويذكر أيضا (ص ١٤٢) أن الصليبيون دخلوا معرة النعمان بالامان ، وقضوا الليل بهـا وهم يسـكنون من روع أهلهـا ويطمئنوهم « •... حتى اذا أصبح الصبح اخترطوا سيوفهم ، ومالوا على الناس وقتلوا منهم خلقا كثيرا ••• وقتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبى » ، كما أحرقوا سور البلد ومساجده • أنظر أيضا ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ص ١٣٦ •

(٢) يذكر ابن القلاسى ان الصليبيين قتلوا أعدادا هائلة فى بيت المقدس كما جمعوا اليهود فى كنيسة واحرقوها عليهم (ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧) • وقـد اعترف المؤرخون اللاتين المرافقون للحملة بالفظائع التى ارتكبها الصليبيون ، اذ يقول فلوشير دى شارتر Flucher de charter على سبيل المثال أن الصليبيين أخـذوا يفتشون أجساد القتلى من المسلمين بحثا عن الذهب والفضة ثم اخذوا يجمعون هذه الاجساد فى أكوام كبيرة يحرقونها حتى يسهل عليهم العثور على ما يريدون فى الرماد. أنظـر الترجمـة الانجليزية لكتــابه فى Edward Peters, The First Crusads pp. 77-ff. انظر أيضا سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ ١ ، ص ٢٤٣ — ص ٢٤٥ ، وكذلك Runciman, op. cit., Vol. 1, pp. 286-88.

(٣) ابن شداد • النوادر السلطانية والمحـاسن اليوسـفية (تحقيق الدكتـور جمال الدين الشيال) ص ١٧٤ •

(٤) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٥ — ص ١٣٧ ، أسامة بن منقذ : كتــاب الاعتبـار تحقيق فيليب حتى) ص ٦٧ ، ابن الأثير : الكامل فى التــاريخ ، جـ ١٠ ، حوادث سنه ٤٩٢ هـ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩٧ — ٩٨ ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣ ، ص ١١٧ ، العماد الاصفهانى : الفتح القسى : ص ٢٨٦ •

الصليبيون صداها في سطور المدونات التاريخية العربية • ويقدم لنا أسامة بن منقذ مثلا موحيا عن مدى قسوة الصليبي ، فيذكر أن أحد الفرسان المسلمين وقع أسيرا في يد جنود تنكرد Tancréde أمير انطاكية وهو يسميه دنكرى — وتفنن الصليبيون في تعذيب هذا الفارس ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ولكن تنكرد أمرهم بأن يفقأوا عينه اليمنى حتى اذا حمل ترسه لا يرى شيئا (١) •

هذه القسوة والوحشية التى تميز بها المقاتل الصليبي في الأدوار الأولى من الحروب الصليبية هى في حقيقة الأمر تعبير عن المستوى الحضارى الذى عاشه مجتمع أوربا في تلك المرحلة التى شهدت اكتمال ملامح حضارة العصور الوسطى في الغرب ، فأولئك المقاتلون هم أحفاد أبناء القبائل الجرمانية التى أخذت تطرق حدود عالم البحر المتوسط منذ وقت مبكر ، كما أنهم كانوا افرازا لمجتمع ما يزال في طور الفتوة والحيوية المتدفقة •

ويهمنا أن نتعرض لصفة « الكافر » التى نعتت بها المصادر التاريخية العربية المقاتل الصليبي • والحقيقة أن هذه المصادر — بصفة عامة — تتعامل مع الشخصية الصليبية باعتبارها شخصية « عدائية عدوانية » من جهة ، وباعتبارها شخصية « كافرة » من جهة ثانية • وتتجسد هذه الحقيقة واضحة جلية من خلال العبارات التى ترد كثيرا في ثنايا هذه المصادر ، والتى تصف الصليبيين « بالكفار » تارة وبأنهم « العدو المخذول » تارة ثانية ، وبأنهم « الأفرنج لعنهم الله » تارة ثالثة (٢) •

ومن الطبيعى تماما أن تتعامل المصادر التاريخية العربية مع الشخصية الصليبية من منطلق عدائى ، وهى في هذا تعكس المشاعر التى خلفها العدوان الصليبي في وجدان الناس في العالم الاسلامى • حقيقة

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٦٧ — ص ٦٨ •

(٢) انظر على سبيل المثال : ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، ص ١٣٣ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ، ص ١٣٧ ، أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، صفحات ١٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٥ — ١١٤ — ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ — صفحات ٧١ — ٧٢ — ١٥٤ — ج ١١ ، ص ١٤ ، أبو شامة : الروضتين ، صفحات ٥٧ — ٥٨ — ٨٩ — ٩٠ — ابن شداد : النوادر السلطانية صفحات ٢٩ — ٣٨ — ٤٨ — ٦٣ — ١٠٤ — ١٠٥ — ١٢٠ — ١٧٤ — ١٧٨ — ٢٣٦ — ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، صفحات ٧٢ — ٩٣ — ١٢٦ — ١٦٠ • والجدير بالذكر أن ابن جبير في رحلته (تحقيق د• حسين نصار) يردف دائما اسم كل مدينة صليبية بعبارة « دمرها الله » • أنظر رحلة ابن جبير ، ص ٢٩١ ، ص ٢٩٤ •

أن القرآن الكريم يضع السيد المسيح عليه السلام فى مرتبة سامية ، كما أن على المسلم أن يعترف بأن المسيح من الرسل والأنبياء ، الذين يرسلهم الله لهداية البشر ، كجزء من ايمانه بالاسلام ، الا أن موقف المصادر التاريخية العربية العدائى من الشخصية الصليبية وتكفيرها موقف سياسى وليس موقفا دينيا • لقد كانت الحروب الصليبية حربا كأية حرب أخرى رغم أنها تسربلت بمسوح الدين فقد جاء الصليبيون من الغرب الكاثوليكى ليشنوا حربا عدوانية على ديار الاسلام • وحين وصلت أنباء الحملة الى العالم الاسلامى لأول مرة » •• قلق الناس لسماعها ، وانزعجوا لاشتهارها •••، فشرع فى الجمع والاحتشاد ، واقامة مفروض الجهاد ••• » (١) • وكان لابد من مقاومة الصليبيين تحت راية الجهاد • وليس من المعقول أو المنطقى أن يكون الجهاد ضـد من لا يعتبره المسلمون عدوا كافرا • فضلا عن أن البابوية فى المغرب الأوربى قد رفعت ــ منذ البداية ــ شعار الحرب المقدسة ضـد المسلمين « الكفرة » (٢) • وهكذا تبـدو النظرة التى تتعامل بها المصادر التاريخية العربية مع الصليبى ، باعتباره عدوا كافرا ، متوافقة مع منطق ذلك العصر الى حد بعيد •

بيد أنه يجـدر بنا أن نشير الى أن هـذه المصادر ، فى تعاملها مع الصليبى كعدو كافر ، لم تخل من السمة الموضوعية التى افتقرت اليها المصادر اللاتينية التى تتحدث عن تلك الفترة (٣) • فكثيرا ما نلاحظ أن

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٤ •

(٢) انظر على سبيل المثال خطبة البابا أوربان الثانى فى كلير مونت سنة ١٠٩٥ ، والتى وصف فيها المسـلمين بالكفار والاعداء (Edward Peters, the First Crusande, pp. 1-16).

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب يورد الترجمة الإنجليزية الكاملة لنصوص خمس روايات عما تم فى كلير مونت ، وهى رواية «روبرت الراهب» الذى يحتمل أنه كان من شهود العيان فى كلير مونت ، وقد ذكر مانصه « .. هذه المدينة المقدسة (أورشليم) ، التى تحتل مكان القلب من العـالم ، أسيرة الآن فى أيدى أعداء المسـيح ، وخاضـعة لأولئك الذين لايعرفون الله ... » والمؤرخ المجهـول صـاحب اعمـال الفـرنجة Gesta Francorum الـذى رافق الحمـلة الاولى وجاء فيها «... من يريد الخلاص لروحه لايجب أن يتردد فى السير على طريق السيد ، واذا كان يفتقر الى المال ، فان الرحمة الإلهية سوف تمنحه كفايته .. » . انظر رواية «بلدريك كبير أساقفة دول Baldric of Dol ورواية « جيبرت النوجنتى Guibert of Nogent »

انظر كذلك : Morris Bishop, op. cit., p. 111.

وايضا : جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٥٩ •

(٣) انظر تحليل الدكتور جوزيف نسيم للمصادر اللاتينية لتاريخ الحروب الصليبية فى المرجع السابق ص ٣ ــ ص ١٧ •

المؤرخ المسلم يحترم في عدوه صفات الشجاعة والبسالة والقدرة القتالية ، والمناورة في ميدان القتال ، فضلا عن جلده وقوة تحمله .

ولعل الوصف الذي يقدمه لنا « أسامة بن منقذ » في هذا الصدد يرسم لنا صورة غاية في الوضوح والتركيز ، اذ يقول : « ... سبحان الخالق البارى اذا خبر الانسان أمور الفرنج سبح الله تعالى وقدسه ، ورأى فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ... » (١) . ويسوف لنا أسامه في أماكن متفرقة من كتابه ، أو مذكراته ، عددا من الأمثلة الدالة على شجاعة المقاتل الصليبي وجسارته اذ يروى لنا قصة فارس صليبي اشتهر بين المسلمين والصليبيين على السواء ببسالته ، وكيف أن هذا الفارس استطاع أن يهزم بمفرده أربعة من فرسان المسلمين . كما يحكى عن فارس آخر حملته شجاعته وحماسته على مهاجمة فرقة كاملة من الجيش الاسلامي ، وعلى الرغم من أن فرسه قتل أثناء المعركة ، فانه ظل يقاتل راجلا ، وهو يتقهقر حتى تمكن من اللحاق برفاقه وقد نالت الجراح من كل مكان في جسده (٢) . ويبدى « أسامة بن منقذ » اعجابه الشديد بهذا الفارس الشجاع الذى ذاع صيته بين المسلمين والصليبيين على السواء ، ويقدم أسامه مثالا ثالثا على شجاعة بعض الفرسان الصليبيين فيما رواه عن أن « أحد شياطينهم » ـ على حد تعبيره ـ قد استطاع أن يستولى بمفرده على مغارة كان فيها بعض المسلمين فقد كانت المغارة معلقة في الجبل وقد احتمى بها بعض المسلمين ، ونزل اليهم هذا الصليبي في صندوق ربطه رفاقه بسلاسل الحديد فتمكن من الاستيلاء على المغارة وأسر من بها (٣) .

والحقيقة أن مذكرات « أسامة بن منقذ » التى تتناول أخبار الحروب الصليبية في تلك الفترة على قدر كبير من الأهمية لأنها عبارة عن ملاحظات شخصية نتيجة لاحتكاك كاتبها بالصليبيين احتكاكا مباشرا ، فقد آخى الصليبيين زمن السلم وعقد الصداقات معهم ، وقاتلهم وقت الحرب ، ثم دون ملاحظاته الذكية القيمة في أسلوب يتميز بالموضوعية ودقة الملاحظة .

أما ابن شداد فيتحدث عن قوة احتمالهم في اعجاب قائلا : «..فانظر الى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولا نفع...» (٤) .

---

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٧٨ ـ ص ١٨٠ .

كما يتحدث عن ريتشارد قلب الاسد ـ ملك انجلترا وأحد زعماء الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ـ بقوله : « ... وكان الملعون شجاعا باسلا ، صاحب رأى فى الحرب ، وثبت بين يدى العسكر .. » (١) كما يقول عنه فى مكان آخر من كتابه « ... وهذا الانكتار شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوى الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ... » (٢) .

كذلك تتحدث بعض المصادر العربيه الأخرى عن بعض فرسان الصليبيين ومقاتليهم فتصفهم بالفروسية والشجاعة والبسالة وشدة المراس (٣) .

وهكذا نجد أن المصادر التاريخية العربية اسرمت فى المقاتل الصليبى شجاعته وبسالته ، وقوة تحمله ، ولم يجد المؤرخون المسلمون حرجا فى ذكر الأمثلة الدالة على هذه الشجاعة على الرغم من الحرب القائمة والصراع الدائر بين الطرفين .

وفى تصورنا أنه يمكن تفسير هذه الشجاعة التى تميز بها المقاتل الصليبى ، فى ضوء خلفيته الاجتماعية من جهة ، والتدين العاطفى الذى حكم سلوكه من جهة ثانية ، فضلا عن الظروف المعادية التى عاش فى اطارها الصليبى على أرض الشام من جهة ثالثة .

فقد كانت التنشئة العسكرية لفرسان العصور الوسطى تغرس فيهم صفات الشجاعة والاقدام وقوة التحمل ، كما تنمى فيهم روح الولاء . ولما كانت الحرب هي الحرفة الأساسية للفارس ، فانه كان يعد منذ نعومة أظافره لهذه المهمة . بيد أن الفرسان ـ كطبقة اجتماعية آنذاك ـ كانوا يتوارثون هذه الحرفة ، اذ لم يكن يسمح لأحد بالانخراط فى سلك الفرسان ما لم يكن ابنا لأحد الفرسان ، أو سليلا لفارس من عائلة أبيه على الأقل (٤) .

وفى القرن الحادى عشر ـ الذى حدثت الحملة الصليبية قرب نهايته كان الفارس يتلقى تدريبه منذ الطفولة على فنون القتال واستخدام مختلف

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .
(٣) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦١ ، أبو شامة ، الروضتين ـ ص ٥٨ .
(٤) A.V.B. Norman, The Medieval Soldier, p. 142.

الاسلحة التي عرفهـا ذلك العصر ، مثـل السيف والحربة والبلطه ... وغيرها . كمـا كان يتدرب على كيفيـة استخدام درعـه والسـيطرة على فرسـه (١) . وتفصيل ذلك أن الطفل في سن السابعة كان يؤخذ بعيدا عن منزله ، خوفا من أن يفسده تدليل الأبوين ، ويرسل الى بلاط أحـد السادة الاقطاعيين الذين تربطهم بأسرته علاقة وديه من نوع ما . وحين يبلغ الرابعة عشرة من عمره يوكل اليه أمر العناية بخيول سيده الاقطاعي وأسلحته ، كما يقوم بخدمته على المائدة . وعندما يقترب من سن العشرين يكون قد أتم تدريبه على أسـلحة الفرسان ومعـداتهم ، أى يكون مؤهلا للانخراط في سلك هذه الطبقة . فيمنحه سيده الاقطاعي سلاحا وفرسا ودرعا ، ويتم تنصيبه فارسا في حفل ذى مراسم محددة . وعندها يصير الفارس مكلفا بالقتال تحت راية سيده الاقطاعي فى الحروب التي يخوضها . والتي حاولت البابوية ، وبعض الأمراء الحد منها بالدعوة الى «هدنة الله» ، وسلام الله (٢) .

والى جانب هذه الخلفية الاجتماعية التي نشأ الفارس الصليبي في رحابها يمكننا أن نفسر هـذه الشجاعة في ضـوء الحقيقة القاتلة ان هـذا الفارس كان أسير عاطفة دينية جياشة ، ولو أنهـا مشوبة بالاعتقاد في الخرافات والغيبيات بفعل سيطرة البابوية والكنيسة على الحياة الثقافية في أوربا آنذاك . ويرى الدكتـور جوزيف نسيم أن الحـروب الصليبية « كانت تمثل روح العالم الغربي الوسيط والأفكار السائدة فيه تمثيلا صادقا في ناحيتين هامتين هما ناحية الدين وناحية الحرب ... وهكذا عاش الفرد الوسيط داخـل الدائرة الضيقة المغلقة التي وضعته فيهـا الكنيسـة لا حـول له ولا طول ، وعليه السمع والطـاعة دون جـدل أو مناقشة » (٣) . وكان الفارس في هذا الغرب الأوربي مكلفا بالدفاع عن

---

(١) Ibid, p. 143.

(٢) عن تفاصيل حياة الفروسية فى المجتمع الاقطاعى انظر :

Sidney Painter, I hist. of the Middle Ages, pp. 118-22 Canter. The Med. hist., p. 235; Bishop, The Pengiu, book of The Middle Ages. pp. 58-86; Norman, op. cit., pp. 141-156.

انظر أيضا : سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى (الانجلو المصرية سـنة ١٩٧٦) ج ٢ ، ص ٢٧٤ — ص ٢٧٥ .

(٣) جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٣٣ — ص ٣٤ ، ص ٥٢ — ص٥٩ حيث يناقش تأثير التيارات الدينية على مفاهيم العصر ، وكيف أن البابوية ورجالها كانوا يروجون للنبوءات والرؤى التي تحمل الطابع الاسطورى كلمـا خبت الحماسة للحركة الصليبية .

الكنيسة وخدمة أهدافها . ولعل مراجعة نص الخطبة المنسوبة الى البابا أوربان الثاني والكلمات التي خاطب بها فرسان فرنسا تكشف عن مدى فعالية الدعاية البابوية في هذه الأوساط (١) .

وهناك من الأمثلة ما يؤكد أن خضوع الصليبيين لهذه الدعاية الدينية ، وما يعتمل في نفوسهم من مشاعر تولدت عنها ، كانت تدفع بهم من أحط حالات اليأس الى الصمود والاستبسال في القتال على نحو ما حدث بعد استيلاء قوات الحملة المعروفة بالحملة الصليبية الأولى على مدينة أنطاكية سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م) (٢) . ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين بعد أن استولوا على مدينة أنطاكية ، وصلت قوات المسلمين بقيادة « كربوقا » ، ووقع الصليبيون في الحصار ، وظلوا على هذا الوضع اثنى عشر يوما يعانون فيها من قلة المؤن والأقوات » ... وتقوت الأقوياء منهم بدوابهم ، والضعفاء بالميتة وأوراق الشجر ، فلما رأوا ذلك أرسلوا الى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد فلم يعطيهم ما طلبوا ، وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكندفرى والقمص صاحب الرها وبيمنت صاحب أنطاكية ، وهو المقدم عليهم ، وكان معهم راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال (٣) . فقال لهم ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذى فى أنطاكية ، وهو بناء عظيم ، فان وجدتموها فانكم تظفرون ، وان لم تجدوها فالهلاك محقق ، وكان قد دفن قبل ذلك حربة فيه وعفى أثرها ، وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم ، وحفروا فى جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم أبشروا بالظفر .. » ودبت الحماسة فى صدور الصليبيين المحصورين داخل أسوار

---

(١) Edward Peters, The First Crusade; pp. 2-5.

(٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١١٣٢ : ص ١٣٦ ، ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ . وانظر كذلك

Runciman, A history of the Crusades Vol. 1 pp. 213-35.

أيضا : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠١ ـ ص ٢٠٥ .

(٣) هو المندوب البابوى أدهمار ، وكان المشتركون فى معركة انطاكية هم : بوهيموند (بيمنت) وروبرت أمير فلاندرز وريموند (القمص صاحب الرها) وجود فرى (كند فرى) .. وغيرهما ـ أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٩٠

Runciman, op. cit., vol. 1 pp. 206.

أنطاكية وأخذوا يتأهبون للخروج الى قتال قوات كربوقا التى كانت قد وصلت لنجـدة المدينه • وحين حرج الصليبيون من انطاكية استطاعوا آن يلحقوا الهزيمة بالقوات الاسـلامية التى كانت الخلافات والمنـازعات بين قادتها قد اودت بروحها القتالية (١) •

وتكشف هذه الرواية التى أوردها ابن الأثير بوضوح كيف أن هذه الحيله التى لعبت على أوتار عاطفة الصليبيين الدينية كانت عاملا حاسما في أخراجهـم من المـأزق الذى كاد أن يدفعهم الى الاستسـلام • والجدير بالدكر ان المصادر اللاتينية تتحدث عن هذه الحادثة فى تفصيل كبير يكشف عن اعتقاد مؤلفيها الراسخ في صحة هذه الواقعة •

ومن ناحيـــة أخرى يلاحظ المؤرخ ابن شــداد مدى خضوع المقاتل الصليبى للدعاية البابوية بعد سقوط مدينة بيت المقدس فى أيدى المسلمين بقيادة صلاح الدين الايوبى سنة ٥٨٣ هـ وكيف أن هذه الدعايه قامت على أساس صورة كبيرة تمثل مدينة القدس « ••• وبها كنيسة القيامة التى يحجون اليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وصور القبر وصور عليه فارسا مسلما قد وطىء قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر ••• » ويستمر ا بن شداد فيقول «•••وأظهرت هذه الورقة فى الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشفة، وعليهم المسوحة وينادون بالويل والثبور ••• » ثم يقدم لنا ملاحظة ذكية عن نوعية تدين الصليبى فيقول «••• وللصور عمل فى قلوبهم •••» (٢) كما أنه حين يتحدث عن المفاوضات بين ريتشارد قلب الأسد والعادل أخى صلاح الدين يوضح كيف كان اهتمام الصليبيين عظيما ببيت المقدس وصليب الصلبوت (٣) •

كما أن العماد الأصفهانى يوضح لنا ـ رغم زخرفة أسلوبه ـ صورة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ، ص ١٠٣ ، حوادث سنة ٤٩١ هـ. والجدير بالذكر أن المؤرخ المجهول ، الذى كان من شهود العيان يذكر أن قسيسا جاء الى القادة الصليبيين المحاصرين فى انطاكية واخبرهم نبأ الرؤية التى تتحدث عن هذه الحرب المقدسة . أنظر نص الترجمة الانجليزية لروايته ، وكذلك رواية «ريموند من أجويليه

E. Peters, The first Crusade, pp. 176-85 Raymond d'Aguiliers.

ويذكر الدكتور جوزيف نسيم ان اسم هذا الرجل الفرنجى «بطرس برثولماوس»

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٦ ـ ص ١٣٧ •

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ •

واضحة عن المعارك حول بيت المقدس ، وكيف أن تدين المقاتل الصليبى كان يدفعه الى الاستبسال فى القتـــال دفاعا عن المدينة ضــد قوات صلاح الدين (١) .

وتقدم لنا المصادر العربية المزيد من الأمثلة التى تكشف عن أن العزف على أوتار العاطفة الدينية كانت تدفع المقاتل الصليبى الى اظهار الشجاعة والاستماتة فى القتال ، وهو ما يدل على مدى خضوع المقاتل الصليبى لمؤثرات الدعاية البابوية المحمومة التى واكبت أحداث الحروب الصليبية (٢) .

على أننا يجب أن نلاحظ أنه اذا كانت شجاعة المقاتل الصليبى التى استحوذت على انتباه المصادر العربية ليست الا نتاج خلفيته الاجتماعيه، والمفاهيم الدينية التى حكمت تصرفات الناس فى تلك المرحلة من العصور الوسطى ، فان هذا المقاتل ، من ناحية أخرى ، كان ممثلا لحضارة ما تزال فى طور شبابها وحيويتها ، ومن ثم فانه كان تعبيرا عن واقع المجتمع الذى شــهد اكتمــال ملامح الحضــارة الوسيطة (٣) فقد كانت الحروب الصليبية فى حقيقة أمرها توضيحا ـ ولو أنه توضيح درامى له مغزاه للجوانب الرئيسية فى حيــاة الناس فى العصور الوسطى ، كما انهــا ـ من ناحية أخرى ليست سوى عامل سببى من عوامل التغيير التاريخى آنذاك . على أية حال ، فانه يمكن القول بأن الحروب الصليبية تمثل فترة تاريخية تجلت فيها خصائص وسمات المجتمع الأوربى واضحة تماما ، ذلك أن تلك الحروب تكشف عن أهل العصور الوسطى فى أفضل حالاتهم وأكثرها سوءا . وهذا هو ما يجعل هذه المرحلة جديرة بالدراســة من زاوية غير تقليدية .

وفى هــذا المجتمع الذى تكشف الحــروب الصليبة عن ســماته وخصائصه كان الفــارس يحتــل مكانة هامة ، انعكست على أوضاع الصليبين فى بلاد الشام وقد كان الفارس مكلفا بالدفاع عن الكنيسة ـ وبأن يدفع الظلم عن الفقراء وأن يوطد دعائم الســـلام فى بلدته أو

---

(١) العماد الاصفهانى ، الفتح القسى ، ص ١١٩ ، ص ١٢٩ .

(٢) ابن القلانسى (ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٣) ويذكر أن الصليبيين كانوا يأخذون معهم كنيسة متنقلة فى تحركاتهم العسكرية . أنظر أيضا ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ، صفحات ٧٢ ، ٧٣ . ١٢٦ .

(٣) Cantor, The med. hist, p. 325.

مقاطعته ، وعليه أن يريق دمه أو يضحى بروحه فى سبيل الدفاع عن اخوانه . وعلى الرغم من مثالية هذه المهمة . فان الفارس كان مطالبا ، بأن يقوم – على الأقل بأداء الشطر الأعظم منها . وهو الأمر الذى كان يتطلب منه قدرا كبيرا من الشجاعة والقدرة القتالية والصبر والتحمل . ومن ناحية أخرى اكتسب الفارس مكانته السامية فى المجتمع من أهمية وخطورة المهمة المنوطة به فى هذا المجتمع (١) .

ولذا فان المكانة الهامة التى احتلها الفارس فى المجتمع الصليبى لفتت أنظار المؤرخين المسلمين خاصة أولئك الذين شاءت ظروفهم أن يتعاملوا مع الصليبيين عن قرب ، ومن هؤلاء « أسامة بن منقذ » الذى يقول فى هذا الصدد «...والافرنج خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ومنزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان ، فهم أصحاب الرأى ، وهم أصحاب القضاء والحكم...» ويقدم لنا أسامة من الأمثلة ما يؤكد ذلك ويؤكد (٢) ابن شداد ما رواه أسامة عن أهمية الفارس الصليبى وتوليه أمر القضاء والحكم (٣) .

ومما يكشف عن مدى أهمية الفارس لدى الصليبيين مثالان قدمهما « أسامة بن منقذ » يتحدث أحدهما عن فشل فرسان تنكرد Tencerde فى هجومهم على شيزر سنة ١١١٠ م مما جعله يوبخهم بقوله : «...أنتم فرسانى وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء سرجند (أى مشاة) ما تقدرون تقلعوهم من مواضعهم ...» (٤) أما المثال الثانى فيتعلق بأحد الأسرى من مشاة الصليبيين ، فحين طلب المسلمون منه فدية قدرها ستمائة دينار لاطلاق سراحه سخر منهم بقوله « أنا سرجند ديوانى كل شهر ديناران . من أين لى ستمائة دينار ؟ » (٥) .

ان المقابلة بين هذين المثالين تكشف لنا بوضوح عن الفرق بين مكانة الفارس الصليبى وما يتمتع به من رفاهية فى المجتمع الصليبى من ناحية ، وضآلة قدر المقاتل من المشاة فى المجتمع نفسه من ناحية أخرى . وهذه الحقيقة التى أدركتها المصادر العربية تتفق تماما مع

---

(1) Morris Bishop, The penguin Book of Middle Ages, p. 85.

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٦٤ – ص ٦٥ ، ص ٦٧ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٧ ، ص ٢١٨ .

(٤) أسامة : الاعتبار ، ص ٦٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

طبيعة الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، فهو وجود عسكرى استيطانى لا يجد لنفسه أمانا فى المحيط الاسلامى المعادى له سوى بتدعيم قواته القتالية التى كان الفرسان أهم دعاماتها بطبيعة الحال ، ولذلك كان امراء الصليبيين وملوكهم يغضبون كثيرا اذا فشل فرسانهم فى تحقيق مهامهم وينزلون بهم أقصى ضروب العقاب (١) ·

هذه المكانة الهامة التى تبوأها الفارس فى الكيان الصليبى تفرض علينا ان نتوقف قليلا أمام بنية الجيش الصليبى بوجه عام · فالواقع أن الفرسان كانوا الركيزة الاساسيه فى أى جيش صليبى ، بيد انهم كانوا فى الوقت نفسه قلة فى هذا الجيش بسبب طبيعة تنشئة الفارس منذ الصغر من ناحية ، وكثرة تكاليف اعداد الفارس من ناحية أخرى · وكان الجيش الصليبى يتكون فى العادة من مصادر ثلاثة : هى الفرسان، والجنود المرتزقة ، ثم الرجال العاديين القادمين لحج · وكان هؤلاء يفوقون من حيث اعدادهم المصدرين الآخرين وذلك بسبب قلة تكاليف تجنيدهم ، وقلة الامتيازات التى كانوا يحصلون عليها من وراء اشتراكهم فى القتال · ولكن هؤلاء لم يكونوا مؤهلين للقيام بالأعمال العسكريه وهو الأمر الذى كان يترك تأثيره السلبى على أداء الجيش الصليبى بطبيعة الحال (٢) · ويشير ستيفن رنسمان ــ اعتمادا على تحليله لمصادر الحملة الصليبية الأولى ــ الى أن نسبة الفرسان الى المشاة فى الجيش الصليبى ربما كانت نسبة واحد الى سبعة ، وذلك اذا ما كان الجيش يضم كل القادرين على القتال (٣) · والواقع أن قوة الجيش الصليبى كانت تقاس بعدد الفرسان الذين يضمهم بين صفوفه ، بل ان نتيجة المعركة غالبا ما كانت تحسم بعد أول صدام مع الجيش المعادى اذا ما نجح الفرسان فى هجومهم (٤) ·

وتمدنا المصادر التاريخية العربية بطائفة من الأمثلة التى يمكن أن تساعدنا على تكوين فكرة عامة عن بنية الجيش الصليبى · فابن القلانسى يذكر فى حوادث سنة ٤٩٤ هـ أن جيشا مصريا كبيرا اتجه الى عسقلان لمحاربة الصليبيين » ··· ونهض اليه من الفرنج ألف فارس

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ، ص ٦٧ ·

(٢) James A. Brundage, Medival Canon Law and the Crusaders, C.usader in the memoirs of Usama Ibn Munqidh (a paper delivered at the American Academy of relision, Washington), p. 8.

(٣) Runciman, A hist. of the Crusaders, vol. 1, pp. 336-41.

(٤) J. Prawer, The World of the Grusaders, p. 131.

وعشرة آلاف راجل (١) ... » كما يقدم لنا ابن شداد ــ الذى عاصر الصراع بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الايوبى ، والصليبيين الذين تدعمت قواتهم بوصول الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوربا آنذاك وهم ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا . وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا ، وقدم لنا وصفا شيقا للمعارك ، والأحداث التاريخية ، فضلا عن وصفه الدقيق للأسلحة وأساليب القتال ــ يقدم ابن شداد مثالا عن جيش الصليبيين الذى حاصر عكا ، وأستولى عليها سنة ٥٨٧ هـ . (١١٩١)م، فيذكر أنه كان يتألف من ألفى فارس وثلاثين ألف راجل (٢) .

كما يقدم لنا المؤرخ ابن الأثير عددا من الأمثلة التى يمكن أن توضح سبب هذا الفرق الكبير بين الفرسان والمشاة فى الجيش الصليبى ، فهو يوضح كيف كان الصليبيون فى الشام يستعينون بمن يفد اليهم من الغرب الأوربى ، بقصد الحج الى بيت المقدس فى تدعيم قوتهم العسكرية. صحيح ان بعض أولئك الحجاج كانوا من الفرسان ، بيد ان نسبتهم كانت ضئيلة . ففى حوادث سنة ٤٩٦ هجرية يذكر ابن الأثير ان بلدوين (ويسميه بغدوين) استعان بالفرنج الذين كانوا قد وصلوا من أوربا لزيارة بيت المقدس لمحاربة القوات الفاطمية فى عسقلان (٣) . كما يذكر أن ريموند (ويسميه الصنجيل وهو تحريف لعبارة Raymond de St. Angilles) نفسه بحاجة الى قوات لمساعدته استعان بمن وصل الى ميناء اللاذقية من الفرنج الذين كانوا خليطا من « ... التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك » لحصار طرابلس سنة ٤٩٧ هـ ولكن هذه القوات فشلت فى الاستيلاء على طرابلس فسارت الى جبيل واستولت عليها ، ثم واصلت سيرها الى صور واستولت عليها أيضا (٤) . وتمدنا المصادر التاريخية العربية التى عالجت أحداث هذه الفترة بطائفة من الأمثلة المتشابهة (٥) .

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٠ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٤ ــ ص ١٠٥ ، أنظر أيضا أبو شامة ، الروضتين ، ص ٥٧ ــ ص ٥٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٣٦ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٣٩ .

(٥) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ ، ص ١٤٣ حيث يتحدث فى حوادث سنتى ٤٩٥ هـ ، ٤٩٧ هـ عن وصول بعض السفن التى تحمل امدادات من « التجار والاجناد والحجاج وغير ذلك » ، ويذكر أبو شامة (الروضتين ــ ص ٥١ ــ ص ٥٢) نبأ وصول امدادات صليبية عن طريق البحر .

وهكذا نجد أن المصادر التاريخية العربية احترمت فى المقاتل الوجود الصليبى الاستيطانى محيط فى بشرى معادى من ناحية ثانية ، فرضت هذه الأهمية التى تمتع بها الفرسان فى الجيش الصليبى بوجه عام ، كما أنها ـ من جهة أخرى ـ فرضت أسلوبا معينا فى القتال كان على الجيش أن يتبعه ، فضلا عن أنها غرست فى المقاتل الصليبى صفات معينة . بيد أننا يجب أن نشير الى أن مكانة الفرسان الاجتماعية قد انعكست أيضا على مكانتهم فى الجيش (١) .

أما أسلوب القتال الذى كان الجيش الصليبى ينتهجه ، فيمكن توضيحه من خلال بعض الأمثلة التى أوردتها المصادر العربية . فابن شداد ، مثلا ، يقول « ... فخرج فارسهم وراجلهم ، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين فى أنفسهم ، ولا خارجين عن راجلهم ، والرجالة حولهم كالسور المبنى يتلوا بعضها بعضا ... » (٢) . وفى كلامه عن احدى المعارك التى جرت قبيل سقوط عكا فى أيدى صليبى الحملة الثالثة يؤكد ابن شداد مرة أخرى هذه الملاحظة بقوله : « ... وكان عسكر العدو المخذول قد ترتب فكانت الرجالة حوله كالسور ... » (٣) .

وربما يكون بوسعنا أن نستنتج من كلمات ابن شداد ـ وهو شاهد عيان خبر الحرب وأساليب الصليبيين فى القتال بنفسه ـ ان أهمية الفرسان فى الجيش الصليبى تركت تأثيرها على تشكيل القتال أو الزحف فى الجيش الصليبى ، اذ كان الفرسان يسيرون فى قلب الجيش بحيث يكونوا فى مأمن بفضل حماية المشاة الذين يشكلون ما يشبه السور من حولهم . والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين المتخصصين فى التاريخ الحربى قد أشاروا الى هذه الحقيقة التى توصلوا اليها نتيجة تحليلهم لمعارك الصليبيين (٤) . وهنا ينبغى أن نشير الى ملاحظة هامة أبداها « رنسمان » ، وهى أن اصطلاح « الفرسان » يجب

(١) عن الاقطاع فى فلسطين زمن الحروب الصليبية ومكانة الفرسان انظر :
Jonathan Riley-Smith, The Feudal Nobility and the kingdon of Jerusalem 1174-1277, (Macmillan, London 1973), pp. 3-39.

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٢ ـ ص ٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ـ ص ١٨٠ .

(٤) أنظر A.V.B. Norman, The Med. Soldier, pp. 193-5.
حيث يذكر ان الشكل التقليدى للجيش الصليبى قبيل المعركة هو أن يكون المشاة فى مقدمة الجيش لتلقى صدمة الاقتحام ويصطف الفرسان خلفهم فيما يشبه الكتلة .

أن يستخدم فقط للدلالة على الخيالة الثقيلة التسليح ، وليس على كل من يمتطى صهوة جواد (١) ٠

وتمثلت النتيجة الأخرى ، لقلة عدد الفرسان فى الجيش الصليبى، فى ذلك الحـــذر الشديد والحيطة البالغة اللذين ميزان سلوك المقـاتل الصليبي ٠ فقد كانت الجيوش الصليبية تضم أعدادا كبيرة من الحجاج والوافدين الجدد الذين يفتقرون الى الخبرة القتالية وكان طبيعيا أن يتأثر الجيش بوجــود هؤلاء بين صـفوفه وأن يهتم بالحفـاظ على الفرسان والمقاتلين المحترفين ٠ والواقع أن هذا العيب الكامن فى الجيش الصليبى لم يكن واضحا فى غمرة الانتصارات المذهلة التى أحرزتها جيوش الحملة الأولى ، ولكن الأمر تجلى واضحا حين استوعب المسلمون الصدمة الأولى ، وبدأوا تنظيم صفوفهم للدفاع ثم الهجوم فيما بعد ٠

على أية حال ، هذا الحذر البالغ الذى ميز سلوك المقاتل الصليبى، والذى رصدته المصادر التاريخية العربية ، يمكن تفسيره بهذا السبب ، الى جانب أسباب أخــرى دينية ونفســية كمـا ســنرى فى الصفحات التالية ٠

وقد يبدو كلامنا عن الحذر الشديد والحيطة البالغة اللذين ميزا سلوك المقاتل الصليبى متناقضا مع ما ذكرناه من قبل عن شجاعة هذا المقاتل وقدرته القتالية ٠ ولكن تحليل مفهوم الشجاعة عند المقــاتل الصليبى ، كما يقدمه لنا أحد الباحثين الغربيين المعاصرين ، قد يساعدنا على تبرير هذا التناقض الظاهرى ٠ يقول هذا الباحث «٠٠٠أن الشجاعة صفة أساسية فى الفارس الصليبى ، شأنها شأن صفة الاخلاص تماما ٠ بيد أنها صفة تدل على نشاط منظم مدروس ، فالشجاعة هنا لا تعنى أن يغض الفارس بصره عن الأخطـاء الماثلة ، كمـا أنها لا تعنى التهور والاندفاع الغير مأمون العاقبة ، ولكنها فى الواقع شجاعة تعنى القدرة على تحديد حجم الخطر ، وتقدير مداه فى هدوء ، ودون أن يدع المرء للخوف الى نفسه سبيلا ٠٠٠ » (٢) ٠

وقد تنبهت المصادر التاريخية العربية الى الحذر الذى ميز سلوك المقاتل الصليبى ، فها هو « أسامة بن منقذ » يذكر ما نصه : «٠٠٠وهم،

(١) Runciman, A hist. of the Crusades, vol. 1, p. 337.

(٢) Show (M.R.B.), Joinville and Villehardouin chronicles of the Crusades, (Penguin classics 1973) p. 15.

لعنهم الله ، أكبر النـــاس احترازا فى الحرب ٠٠٠ » (١) ويسوق لنـا أسامة عدة أمثلة لكى يدلل بها على صدق ملاحظته • فقد حدثت مواجهة بين مجموعة صغيرة من فرسان المسلمين ـ كان أسامة بينهم ـ وقوة كبيرة من الصليبيين ، قرب بيت جبريل فى منتصف الطريق بين غزة وبيت المقدس ، « ٠٠٠ فصعدوا الى رابية وقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم وبين الرابيتين فضاء وأصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم لا ينزل اليهم منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ونحن مقابلهم فى قلة ، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين وما زال الافرنج وقوفا على تلك الرابية الى أن انقطع عبور أصحابنا ثم ساروا الينا فاندفعنا بين أيديهم والقتال بيننا لا يجدون فى طلبنا ، ومن وقف فرسه قتلوه ، ومن وقع أخذوه ، ثم عادوا عنا ، وقدر الله سبحانه لنا السلامة ، ولو كنا فى عددهم ونصرنا عليهم كمـا نصروا علينا كنا أفنيناهم ٠٠٠ » •

وتقدم لنا المصادر العربية الأخرى مزيدا من الأمثلة التى تدعم الملاحظة التى أبداها أسامة بن منقذ عن صفة الحذر البالغ فى شخصية المقاتل الصليبى • من ذلك ما يذكر ابن الأثير (٢) ، وابن شـــدادا (٣) والعمـــاد الكاتب الأصفهانى (٤) ، وابن القلانسى (٥) وأبو شامة (٦) • وجميع هذه الأمثلة تكشف كيف كان الصليبيون لايدخلون معركة الا اذا كانت نتائجها مضـــمونة تمـــاما ، وكيف أنهم كانوا يميلون الى القيـــام بعمليات عســكرية محـــدودة • ويبحثون باستمرار عن النصر السريع السـهل متوسلين الى ذلك بالحيلة والخـداع (٧) • كمـا توضــح بعض الأمثلة كيف أن الصليبيين كانوا ، فى بعض الأحيان يقتلون أسراهم خوفا من أن ينقذهم رفاقهم (٨) •

(١) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ١٢ •
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٠٣ ، ص ١٣٩ ـ جـ ١١ ص ١٤٨ •
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٠ ـ ص ٢٠١ •
(٤) العماد الاصفهانى ، الفتح القسى ، ص ٥٩ ـ ص ٦٠ •
(٥) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٥ ـ ص ١٨٦ ، ص ٢١٣ ـ ص ٢١٤ ، ص ٢٩٧ ـ ص ٢٩٩ •
(٦) أبو شامة ، الروضتين ، ص ٥٢ •
(٧) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٦ ـ ص ٥٧ •
(٨) ابن شداد ، النوادر ، ص ١٠١ •

ويسوق لنا المؤرخ ابن شداد مثالا واضح الدلالة على ما تميز به المقاتل الصليبي من حرص وعلى رغبته النصر السهل ، فقد حدث سنة ٥٥٨ هـ (١٥٥٢ م) أن هاجم ريتشارد قلب الأسد قافلة اسلامية كانت قادمة من مصر • وكان قد تخفى فى زى أعرابى ليستطيع التعرف على القافلة ثم هاجمها بعد أن تأكد أن حراسها يغطون فى نومهم واستولى عليها ، ولكنه ما لبث أن ترك غنيمته وهرب بجنوده حين سرت اشاعة بأن السلطان صلاح الدين قادم بجيشه • وحين تأكدوا من كذب الاشاعة وعادوا ثانيـــة الى القـــافلة التى كان بعض أفرادها قد تمكنـــوا من الهرب (١) •

ويرى أحـد المؤرخين العسكريين المحدثين انه يمكن تبرير هـذا الحذر فى ضوء طبيعه الوجود الصليبى فى بلاد الشام • ذلك انه يرى أن الصليبيين فى بلاد الشام كانوا يواجهون عدة مشـاكل عسـكرية تكتيكية واستراتيجية فرضت عليهم المبالغة فى الحذر والحيطة ، كمـا أنهم كانوا يقاتلون فى سبيل تحقيق أهداف محدودة ، هى الاستيلاء على بعض المنـاطق ذات الأهميـة الدينية البالغة بالنسـبة لهم ، وذلك ـ والكلام ما يزال للمؤرخ نفسه ـ فانهم أخذوا ينهجون نهجا دفاعيا فى حروبهم بعد الجيل الأول (٢) •

وعلى الرغم من أن كلام سميل Smail يحمل قدرا من الحقيقة ، فانه لا يقدم لنا التفسير الكافى لهذه الظاهرة التى لفتت انتباه المصادر العربية فى سلوك المقاتل الصليبى • ذلك أنه اذا كان الحذر ضروريا بالنسـبة للصليبيين ، كما يقول ، فانه ضرورى أيضا لكل الجيـوش المتحاربة فى كل زمان ومكان حتى لا تقع الجيوش فريسة الأخطاء التى قد تنجم عن اتخاذ قرار متسرع • والواضح أن الحـذر الذى ميز سلوك المقاتل الصليبى لم يكن حذرا عاديا من ذلك النمط ، ولو كان كذلك لما احتـاج الأمـر من « أسامة بن منقـذ » أن يستخدم عبـارة يصف فيها الصليبيين بأنهم « أكبر الناس احترازا فى الحرب » • فاستخدامه لكلمة الاحتراز ، ثم التأكيد عليها بما قدمه من أمثلة أيدتها المصادر العربية الأخرى ، يوحى بان هناك عاملا نفسيا خبيثا وراء هذه الظاهرة •

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١٣ ـ ص ٢١٤ •

(٢) R.C. Smail, Crusading Warfare (1097-1193) Cambridge university press 1967, p. 138; Mohammad K. H. Ahmed, The Crusader. p. 3.

وفى رأينا أن هذا العامل النفسى لا يرتبط بطبيعة المرحلة الدفاعية التى مر بها الوجود الصليبى فحسب ولكنه يرتبط أيضا بظروف تكوين الجيش الصليبى السابق الاشارة اليها من ناحية ، والوضع القانونى للمقاتل الصليبى فى نظر الغرب الأوربى آنذاك من ناحية ثانية ، وطبيعة الوجود الصليبى والظروف المحيطة به من ناحية ثالثة .

وبما أننا قد ناقشنا ظروف تكوين الجيش الصليبى وتأثيرها السلبى على أداء المقاتل وتصرفاته ، فانه يبقى علينا أن نناقش الوضع القانونى للمقاتل الصليبى ، ثم طبيعة الوجود الصليبى فى بلاد الشام واستجابة المسلمين للتحدى الذى فرضه هذا الوجود .

لقد كان المقاتل الصليبى من الناحية القانونية جنديا فى حرب مقدسة مما أكسبه مكانة خاصة بين أقرانه من العسكريين ، فقد كان هذا المقاتل يتمتع بمزايا تفوق تلك التى يتمتع بها أى مقاتل عادى فى أى جيش عادى . والحقيقة أن القسم الذى كان الصليبى يقطعة على نفسه قبل الانضمام الى الحملة الصليبية كان يجعل منه حاجا فى رحلة حج الى بيت المقدس ومحاربا فى حملة دينية فى الوقت ذاته . أى أن الصليبى كان حاجا قطع على نفسه نذرا بأن يساهم فى الحرب المقدسة أثناء رحلة الحج ، وثوابه على ذلك أن يغفر له البابا – باعتباره الملك لمفاتيح ملكوت السماء – جميع خطاياه السابقة . وفى مقابل ذلك على كل من يأخذ شارة الصليب أن يقسم على الذهاب الى بيت المقدس فاذا ما عاد دون أن يفعل ذلك فانه يعرض نفسه لخطر الحرمان البابوى (١) . وهكذا كان فشل الصليبى فى الوفاء بقسمه يعرضه للعقاب الدينى فى الوقت الذى يتعرض أيضا للعقاب المدنى المتمثل فى فقدانه لامتيازاته التى نالها بوصفه مقاتلا صليبيا ولمكانته المدنية وشخصيته القانونية تبعا لذلك ، بل انه يتعرض للموت بسبب فشله الذى كان يعتبر جريمة تستوجب العقاب (٢) .

---

(١) Brundage, Med. Canon Law, p. 30; Runciman, Ahist. of the Crusades, pp. 107-109; Cantor, the Med. Hist. p. 321.

أنظر أيضا نص خطبة البابا اوربان الثانى فى كلرمونت بمختلف رواياتها .
Peters, The first crusad, pp. 2-15.

وعن امتيازات الصليبيين أنظر المصدر نفسه pp. 238-46.

(٢) Muhammad K. H. Ahmad, The crusader, pp. 7-12.

وقد يسرت الانتصارات الأولية للصليبيين زيارة بيت المقـدس ، وحتى أولئك الذين لم يكونوا ضمن أفراد الجيش الصليبى الذى استولى على بيت المقدس أحسوا بضرورة قيامهم برحلة الحج الى القدس ، ولم يكن هناك ما يعوقهم عن ذلك • ولكن الموقف تبدل تماما حين بدأ الصليبيون يتعرضون لهجمات المسلمين الذين تمكنوا من استرداد بعض ما كان الصليبيون قد استولوا عليه ، ومن بينها بيت المقدس ، ورغم وطأة الاحباط المرير الذى أرهق الصليبيين فى تلك المرحلة فقد ظل الحج يحتل جانبا هاما فى وجدان المقاتل الصليبى وتفكيره ، خوفا من الفشل فى الوفاء بنذره أو قسمه مما قد يعرضه للعقاب أو يعرض ورثته له اذا مات قبل ذلك (١) •

وتمدنا المصادر العربية بطائفة من الأمثلة التى توضح مدى حرص الصليبيين على رحلة الحج ولعل أكثر هذه الأمثلة دلالة ومغزى هو المثل الذى يقدمه ابن شـداد (٢) فقد حدث بعـد صلح الرملة بين المسلمين والصليبيين أنوصل الى بيت المقدس عدد كبير من الصليبيين للحج ، وفتح لهم صلاح الدين الباب فى ذلك « ••• ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردونهم الى يافا ••• » وكان هدف السلطان « ••• أن يقضـوا وطرهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم فيأمن المسـلمون شرهم ، ••• « ولما علم ريتشارد قلب الأسد باقبال الصليبيين على الحج » •• صعب عليه ذلك ، وسير الى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح ألا يأذن لأحد الا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابه ، وعلم الأفرنجية ذلك فعظم عليها واهتموا فى الحج ، فكان يرد منهم كل يوم جموع كثيرة ، مقدمون أوساط وملوك متنكرون ••• » •

هذا المثل الذى قدمه لنا ابن شداد ، والذى تدعمه شواهد عديدة أشارت اليها المصادر العربية الأخرى (٣) ، يقطع كل سبيل أمام الشك فى أهمية الحج لدى المقاتل الصليبى ، فقد أدرك المسلمون أهمية الحج عند الصليبيون مما دفع بصلاح الدين الى تسهيل تلك المهمة أمامهم حتى يعودوا الى أوربا • الا أنه لم تكن لدى المصادر العربية فكرة واضحة

(١) Brundage, op. cit., p. 125

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٦ •

(٣) انظر مزيدا من الامثلة فى : ابن شداد ، ص١٥٦ ، وأسامة ، الاعتبار ص٦٩، وابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٠ — ص ٢٥١ ، ابن القـلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧١ وأبو شامة ، الروضتين ، ص ٥٢ •

عن الأبعاد القانونية والاجتماعية التى أكسبت الحج هذه الأهمية عند المقاتل الصليبي ودفعته الى سلوك سبيل الحذر والحيطة حتى يستطيع القيام برحلة الحج والعودة الى بلاده دون أن يتعرض للعقوبات ولكي يظل محتفظا بامتيازاته من ناحية ثانية ٠ وهكذا نخلص الى أن حرص المقاتل الصليبى على الوفاء بنذره كان عنصر ضغط على نفسيته يحد من تحركاته وقدرته القتالية ويجعله أكثر حرصا في قتاله ٠

تبقى بعد ذلك نقطة أخيرة ، وهى أن حذر المقاتل الصليبى يمكن أن يفسر أيضا في ضوء الظروف التى أحاطت بهذا الوجود العدوانى الاستيطانى فى بلاد الشام ٠ ذلك احساس المقاتل الصليبى بانتمائه الى كيان دخيل قائم فى محيط من الأعداء الذين يتحينون الفرصة للاطاحة به ، جعله أكثر حذرا وحرصا ٠ وربما كان هذا الاحساس كامنا في اللاشعور فى بداية الأمر ، ولكن تصاعد المقاومة الاسلامية ثم تنظيمها بحيث انتقلت الى مرحلة الهجوم ، أفقد هذا الكيان الدخيل احساسه بالأمان ٠ لا سيما وان الجميع قد شاركوا فى مقاومة الوجود الصليبى العدوانى بل ان البدو كانوا يهاجمون المعسكرات الصليبية بشكل مستمر من أجل سرقة الأسلحة والذخائر والمؤن ، وكذلك لاختطاف جنود الصليبيين (١) ٠

ولعل هذا السبب أيضا كان وراء اهتمام الصليبيين الشديد بالتحصينات سواء فى مدنهم وقلاعهم ، أو فى حصارهم وهجومهم على مدن المسلمين وحصونهم (٢) والأمثلة كثيرة ومتواترة فى المصادر التاريخية العربية على مدى اهتمام الصليبيين بالتحصينات ، ففد ذكر ابن الأثير (٢) ، وابن القلانسى (٣) ، وابن شداد (٤) ، وأبو شامة (٤) ،

(١) أنظر مثلا : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٥ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، صفحات ١٠٣ – ١٤٤ – ١٥٥ – ١٥٨ – ١٧٦ – ١٩٠ – ٢١٣ ، الروضتين ، ص ٨٠ ٠

(٢) عن تفاصيل التحصينات داخل القلاع الصليبية انظر :
J. Prawer, The world of the Crusaders, pp. 121-23 pp. (123-26).
وعن آلات الحصار أنظر المرجع نفسه ٠

(٣) الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ١٣٩ ، ص ١٨٤ ٠

(٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٩ ، ١٦٣ ، ص ١٦٧ – ص ١٦٨ ٠

(٥) النوادر السلطانية ، ص ٩٠ – ٩٤ – ١٤٠ – ١٤١ – ١٦٢ – ١٦٦ ٠

(٤) الروضتين ، ٨٩ – ص ٩٠ ٠

وابن العديم (١) فى صفحات مؤلفاتهم طائفة من الأمثلة التى توضح مدى اهتمام الصليبيين بالتحصينات ، كما تكشف من ناحية أخرى عن مدى ضخامة الأبراج التي كانوا يستخدمونها في حالات حصار المدن الاسلامية ، أو اقتحامها ، فقد كانت بعض هذه الأبراج تتألف من عدة طوابق ، كما كان بعضها يتسع لألف مقاتل ·

كما أن الرحالة ابن جبير – الذى زار بلاد الشام فى عصر صلاح الدين فيلاحظ اهتمام الصليبيين بتحصين مدنهم ، ويقول فى ملاحظة ذكية عن مدينة صور المحتلة « ···· مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة ، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، وقد أعدها الفرنج مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم ··· » (٢) ·

والواقع أن أية مجموعة استعمارية استيطانية تمثل أقلية عسكرية ، وتريد أن تبسط سيادتها على أكثرية معادية ، لابد لها من أن تتركز فى مجموعة من المدن الحصينة والقلاع ، وأن تهتم بتدعيم قواتها العسكرية لكى تؤمن وجودها · وهو ما يصدق على الكيان الصليبى فى بلاد الشام · فقد اهتم الصليبيون بالتحصينات فى مدنهم ، كما أقاموا مجموعة من الحصون والقلاع رصعوا بها شبكه الطرق الرئيسية والفرعية فى جميع أنحاء الشام لتؤدى دورا أشبه ما يكون بدور مراكز الشرطة أو القواعد العسكرية ، التى ربطوا بينها بوسائل الاتصال السريع ، مثل الحمام الزاجل واشارات النيران ، لكى يوفروا لأنفسهم سبل الانذار المبكر ، ويسهلوا الاتصالات بين أماكن الوجود الصليبى (٣) ·

وقد أشار العماد الأصفهانى الى هذه الحقيقة بقوله : « ··· وقد رتب الفرنج أفواجا على تلك الفجاج ، لا سيما أبرنس الكرك ، فانه كان حريصا على الدرك ··· » (٤) ·

واذا كانت المصادر العربية قد لاحظت اهتمام الصليبيين بالتحصينات فان استماتة الصليبى فى الدفاع عن مدنه وقلاعه لفت

---

(١) زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ·

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٩١ - ص ٢٩٢ ، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ ·

(٣) J. Prawer, op. cit., p. 121.

(٤) الفتح القسى ، ص ٥٩ · وابرنس الكرك هو Renauld de Chaillon الذى تسميه المصادر العربية « أرناط » ·

انتباه هذه المصادر أيضا . ويمكن تفسير هذه الاستماتة والضراوة فى الدفاع فى ضوء الحقيقة القائلة بأن فقدان الصليبيين للمدن والأراضى التى احتلوها فى سوريا وفلسطين كان يعنى النهاية بالنسبة لهم وتتجسد هذه الحقيقة واضحة فى عبارة لأحد المؤرخين المحدثين يقول : « كان الغرب موجودا تحت سماء الشرق » (١) .

ويجد الباحث العديد من الأمثلة التى توضح مدى استماته الصليبى فى الدفاع عن مدنه وقلاعه ففى حوادث سنه ٥٠٩ هـ ,١١١٥م) يذكر أسامة بن منقذ كيف ظل الصليبيون يقاتلون بضراوة فى قلعة كفر طاب رغم اشتعال النيران فى الحصن حتى افتحمه المسلمون (٢) . كما يقدم ابن شداد عدة ملاحظات هامة فى هذا المجال مثل قوله « ... وقد شاهدتم ، وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عرض الجدار مكشفين ... » أو قوله : « ... ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم ... » الى غير ذلك من الملاحظات (٣) . كما يقدم لنا الأصفهانى عددا من الأمثلة على ذلك (٤) .

ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام أن بعض نساء الصليبيين كن يشاركن فى المعارك ضد المسلمين وأن بعضهن مات أثناء احتدام المعارك (٥) .

كذلك وصفت المصادر العربية المقاتل الصليبى بالغدر ونستطيع أن نجد لهذه المصادر مبررا فيما ارتكبه الصليبيون من فعال شنيعة بمذابح ضد أهالى البلاد رغم أمانهم لهم ، ويضيق بنا المقام عن تتبع هذه الأمثلة ، ولكننا نقتبس عبارة لابن شداد تجسد هذه الرؤية التى نظرت بها المصادر العربية الى الصليبى ، فهو يقول « ... فان مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطوهم بعيدة وصحبتهم غير مأمونة الغائلة ... » (٦) .

---

(١) Prawer, op. cit., p. 83.

(٢) أسامة الاعتبارية ، ص ص ٧٣ ـ ص ٧٥ .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٩١ ـ ص ٩٣ ـ ٩٤ ـ ١٢٠ ـ ١٦٧ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ـ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٤) الفتح القسى ـ ص ٦٥ ـ ١٤ ـ ص ١٢٩ ـ ص ١١٩ ـ ص ٢٧٣ ـ ص ٢٧٤ .

(٥) أسامة، الاعتبار ، ابن شداد : النوادر ـ ص ١٣٠ ـ ١٦٧ ـ ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ـ ص ٢٠٣ ـ انظر أمثلة غدر الصليبيين صفحات ٩٧ ـ ٩٨ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ص ١١٧ وأنظر أيضا الفتح القسى ـ ص ٢٨٦ .

تبقى بعد ذلك ملاحظة أخيرة للمصادر العربية على صورة المقاتل الصليبى وهى ملاحظة فرعية جسدها أسامة بن منقذ فى قوله «... فكل من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين ... » (١) ، وهنا نشير الى أن الحرب لم تمنع من قيام الصلات الحضارية والانسانية بين المتحاربين فقد ضربت لنا المصادر العربية الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك . بل ان بعض المؤرخين يصف الوافدين الجدد من الصليبيين بكلمة « الغرباء » (٢) . بيد أن مسألة التفاعلات الحضارية بين الشرق والغرب مسألة لا يمكن أن تبحث فى مثل هذه الحالة ، وانما تستحق أن نفرد لها صفحات بحث مستقل .

والخلاصة أن الصورة التى رسمتها المصادر التاريخيه العربيه للمقاتل الصليبى خلال فترة الحملات الثلاث الاولى ، صورة تبدو متناقضة الملامح للوهلة الأولى ، فهو مقاتل يتحلى بالشجاعة ولكنه فى الوقت نفسه مبالغ فى الحذر . وعلى الرغم من تدينه العاطفى ، فانه يوصم بالوحشية والقسوة والغدر .

بيد أن النظرة الفاحصة المتأنية تكشف أن هذا التناقض البادى فى صورة المقاتل الصليبى تناقض ظاهرى وهمى تماما ، فالشجاعه صفه أساسية فى الفارس الصليبى ، ولكنها فى الوقت نفسه فعل محسوب لا يهمل الخطر ، كما أن الحذر والاهتمام بالحصون يتوافقان تماما مع طبيعة الوجود العدوانى الاستيطانى للصليبيين فى بلاد الشام ، وما يلقان من مقاومة اسلامية مستمرة . أما تدين المقاتل الصليبى فهو تدين عاطفى غير عقلانى ، خلقته الدعاية البابوية واشاعات الرؤى والاحلام التى واكبت الحركة الصليبية ، كما أن هذا التدين تشوبه الخرافات ويحكمه التعصب الأعمى والحقد على المسلمين . ومن ثم لم يجد الصليبى بالمرة بين تدينه وغدره بأعدائه ، بل أنه رأى فى ذلك خدمة للصليب وتنفيذا لارادة الرب الذى أراد لهذه الحرب أن تكون .

---

(١) أسامة الاعتبار -- ص ١٣٤ . ويقصد بكلمة « تبلدوا » أنهم تعودوا على نمط الحياة الاسلامية فى بلاد الشام .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

قائمة المصادر والمراجع

١ - ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم بن الأثير الجزرى) . ت ٦٣٠ هـ :

- « الكامل فى التاريخ » ج ١٠ ، ج ١١ .

٢ - ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى . ت ٦١٤) :
- « رحلة ابن جبير » تحقيق د .حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥)

٣ - ابن شداد (بهاء الدين بن شداد . ت ٦٣٢ هـ) :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية »

تحقيق د . جمال الدين الشيال (الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤) .

٤ - أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل ابن ابراهيم المقدس الشافعى ت ٦٦٥ هـ) :

- « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » (القاهرة ١٢٨٧ هـ) .

٥ - أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى (ت ٥٨٤ هـ) .

- « كتاب الاعتبار » تحقيق فيليب حتى (برنستون ١٩٣٠) .

٦ - ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم ت ٦٦٠ هـ) .

- « زبدة الحلب من تاريخ حلب » الجزء الثانى

تحقيق سامى الدهان (دمشق ١٩٥٤) .

٧ - ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة بن القلانسى . ت ٥٥٥ هـ) :
« ذيل تاريخ دمشق »

(بيروت ١٩٠٨) .

٨ ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم واصل · ت ٦٩٧ هـ)
ـ « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ج ١ ـ ج ٣ ·
تحقيق د· جمال الدين الشال (القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠)
٩ ـ جوزيف نسيم (دكتور) :
ـ « العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى »
(دار المعارف ١٩٦٣) ·
١٠ ـ سعيد عاشور (دكتور) :
ـ « الحرب الصليبية » جزءان (الطبعة الثانية·القاهرة ١٩٧١)
١١ ـ العماد الأصفهانى (صفى الدين أبو الفرج محمد بن حامد ابن محمد بن عبد الله القرشى الأصفهانى · ت ٥٩٧ هـ) ·
ـ « الفتح القسى فى الفتح القدسى »
تحقيق محمد محمود صبح (القاهرة ١٩٦٥) ·
١٢ ـ محمد مصطفى زيادة (دكتور) :
ـ « حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة »
(القاهرة ١٩٦١) ·

13. Brundage (James), Medieval canon law and the Crusaders, The university of Wisconson press, Madison 1969.

14. Barraclough (Geoffrey) :
— The Medieval papacy, Thomas and Hudson, London 1968.

15. Cantor (Norman F.) :
— The Medieval history, Macmillan, New York, 1969.
— The Medieval World., Macmillan, 1968.

16. Joinville and Villehardouin :
Chronicles of the Crusades, tranel, and introduced by M.R.B. Shaw, Penguin Classics 1973.

17. Jonathan Riley-Smith :
— The Feudal nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174-1277, Macmillan, London 1973.

18. Fulcher of Charteres :

— The chronicle of Fulcher of Charters and other source materials of the First Crusade, transel. with an introduction by Edward Peters, pennsylvania 1971.

19. Morris Bishop :

— The Penguim book of the Middle Ages,

20. Mahammed K. H. Ahmed :

— «The Crusader in the memoires of Usama Ibn Munqidh» A paper delivered at the American Academy of religion, Washington.

21. Norman (A.V.B.).

— The Medieval Soldier, New York 1971.

22. Painter Sidney.

— A history of the Middle Ages, Macmillan, London 1953.

23. Prawer (Joshua) :

— The world of the Crusaders, New York 1972.

24. Runciman (Steven) :

— A History of the Crusads, Vol. 1, New York 1964.

25. Smail (R.C.) :

— Crsading Warfare 1097-1193, Cambridge 1967.